Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماهيّة البلاغة عند القدماء، وقد شاع بين الدارسين أن هذه الأحوال المقتضاة تنصرف عند القدماء إلى أمور تتعلّق بالمرسَل إليه دون المرسِل، والحق أنّ فى ذلك إغفالاً لجهود بلاغيّة عنيت بالمتكلّم، وما له من دور فعّال فى إبداع الصيغ الأدبية وفق أحوال نفسيّة متنوّعة. فرجل مثل السكاكى يُعنى بكافة أطراف الاتصال، جاعلاً الصياغة انعكاسًا للأحوال الخاصة والعامة للمرسِل، الذى يقيم عملياته الاختيارية، ويضع تراكيبه وفق حالته الذاتية، وطبائعه النفسيّة والعمليّة، ووفق ما يحيط به من ظروف البيئة.

وبرغم الإشارات البلاغية إلى ارتباط الصياغة بمبدعها، فإنه "لا يمكن أن ننكر وجود نوع من الاهتمام البلاغى بالمتلقى على حساب المبدع أحيانًا، ذلك أن تفتح الدرس البلاغى جاء متأثرًا بالدراسات التى دارت حول القرآن من تفسير وتأويل، ومن نحو ولغة، حيث كان الاتكاء فى هذا الدرس على ارتباط النص القرآنى بمتلقيه، إذ كان هناك حرج شديد فى تناول الخطاب القرآنى بالنسبة لمصدره، وكان هذا موجهًا للدرس البلاغى -دون وعى- إلى الاتكاء على المتلقى وحالاته الإدراكية، وظل هذا الحرج الدينى مانعًا من التعامل مع المبدع تعاملاً حرًا طليقًا".(١)

وإذا كان من المحاذير البلاغيّة تبعيّة المعنى للفظ، فإن البلاغيين واصلوا الاعتداد بذلك المحذور خلال كلامهم عن مراعاة الاعتبار المناسب للحال، فكل حال تستدعى بناء لغويا معيّنًا يأتى ناتجه الدلالى بما يلائم أحوال المخاطبين ومطالب الأنماط النوعية للمواقف، ورعاية المعانى التى تناسب الوقائع على تفاصيلها هى فى النظر البلاغى القديم معيار البلاغة والقوّة والبراعة،(٢) وهى ركيزة الترجيح بين المبدعين بها يتبين الكامل من القاصر. من هذا المنطق أخذ شرّاح التلخيص على الصاحب بن عباد أنه كان يطوّع المعانى لاختياراته الصياغية، حيث يقصد قصدًا إلى المحسن البديعى فلا يواتيه التحسين فى بعض الأقوال إلا على معنى ليس مقصودًا ولا مطلوبًا ولا علاقة له بالواقع مطلقا. ومن الأمثلة التى اعتبرت نموذجًا للمحسن المتكلّف؛ مجيء التسجيع على حساب المعنى ومقتضى الحال الواقعة اللذين صارا تابعين للألفاظ، وذلك فى قول

---

(١) البلاغة العربية قراءة جديدة، محمد عبد المطلب، ص ٢١٢.

(٢) انظر: مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص٤٧٠.